مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 27، نوفمبر 2020، ص - ص: 645 – 670
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

# الشّيخ العَرْبي التّبسي والثّورة الجزائرية

# Sheikh Larbi Tebeci and the Algerian Revolution

**د. سعيد بورنان**
جامعة تيزي وزو
boure.1968@gmail.com

**تاريخ الإرسال: 2020/08/27 تاريخ القبول: 2020/10/19**

**الملخص**:

يتناول هذا البحث موقف الشّيخ العربي التّبسي من الثّورة التحريرية الجزائرية، والمهام والأدوار التي كان يقوم بها في السّر والعلن لصالحها، وكيف أصرّ الشّيخ على البقاء في الجزائر رغم الطلب الملح من قيادة جبهة التحرير الوطني بمغادرته الجزائر لمواصلة نضاله في الخارج حين رأت أنّ حياته أصبحت في خطر! ويُظهر البحث أيضا - من خلال بعض الشّهادات والمصادر الموثوقة - ما تحلى به الشّيخ من وطنية صادقة وصلابة نادرة أمام مناورات الإدارة الاستعمارية ومخابراتها التي حاولت استدراجه للتفاوض من أجل وقف إطلاق النار لما أيقنت أنّ الشّيخ من مؤيّدي الثّورة، وأحد محرّكي قواعدها الشّعبية، وكانت وطنية الشّيخ وصلابته سببا لاختطافه ثم اغتياله من طرف المستعمرين في أفريل 1957م. والهدف الأساسي الذي رسمناه للبحث هو الإجابة عن بعض الإشكالات المطروحة بخصوص موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية، ودور أعضائها البارزين خلال هذه المرحلة، خاصة في داخل الوطن، ولماذا لم تُعلن الجمعية عن تأييدها الصّريح للثورة منذ البداية؟

**كلمات مفتاحية:** العربي التّبسي؛ جمعية العلماء المسلمين؛ الثورة الجزائرية.

## Abstract

This paper dealt with the position of Sheikh Larbi Tebeci in the Algerian liberation revolution, the tasks and roles he played in secret and in favor of it, and how he insisted on staying in Algeria despite the urgent request from the leadership of the National Liberation Front to leave Algeria to continue his struggle abroad when it felt that his life was in danger ! The research also shows, through some testimonies and reliable sources, the sheikh's sincere patriotism and rare hardness in front of the maneuvers of the colonial administration, which tried to draw him to negotiate a ceasefire, when she realized that the sheikh was a supporter of the revolution and that he was one of the movers of its popular bases. Sheikh and his hardness as a reason for his abduction and assassination by the colonists in April 1957. The basis that we set out for the research is to

answer some of the problems raised regarding the position of the Association of Algerian Muslim, and the role of its prominent members during this period, and why the association did not declare its explicit support for the revolution from the beginning?
**Keywords:** Larbi Tebeci ; Association of Algerian Muslim ; Algerian Revolution.

**مقدمة:**

لم تأتِ ثورة أوّل نوفمبر 1954م صدفة، وإنّما انبثقت من أرضية مهيّأة، وتربة صالحة، تظافرت جهود الجزائريين - على اختلاف مشاربهم السّياسية والثّقافية- على تهيئتها، وقد كان لرجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دورهم في هذا العمل، فقد هيّؤوا الذّهنيات، وأيقظوا المشاعر بأناشيدهم وتعليمهم ومبادئهم وخطبهم ومواقفهم. وهذا الدور يُقرّ به للعلماء الكثير من الباحثين، وتُقرّ به كتابات رجال الاستعمار أيضا منهم الرائد جاك كاري، ضابط المخابرات الفرنسية، الذي كتب في مقاله الذي نُشر سنة 1958م[1]: «.. قد لا تكون جمعية العلماء على علم بالقرار السّري لإعلان الانتفاضة في أوّل نوفمبر 1954م، إلاّ أنّها قد هيّأت الأرضية المناسبة لانتشارها، وكوّنت الإطارات اللاّزمة لها»[2].

غير أنّ موقف جمعية العلماء من الثّورة التّحريرية وإسهام رجالها في هذه الثورة ما يزال محل نقاش وجدال، فمن الكُتاب من يدعي بأنّ الجمعية ظلت لأكثر من سنة مترددة وغير واضحة في موقفها من الثّورة، ودليلهم على ذلك أنّها لم تعلن صراحة عن تأييدها للثورة إلا بعد مرور أزيد من أربع عشرة شهرا على اندلاع الكفاح المسلح، أي حين أصدرت بلاغها الشّهير في 7 جانفي 1956م! وهذا الرأي في نظري يُجافي الحقيقة التاريخية، فالعديد من كتابات المعاصرين وشهاداتهم تؤكّد انخراط الكثير من معلمي الجمعية وطلبتها وأعضائها البارزين في العمل الثّوري السرّي منذ الأشهر الأولى من اندلاع الثّورة، ومن هنا جاءت هذه الدراسة التي خصّصناها لدور الشّيخ العربي التّبسي في الثّورة التّحريرية، لأنّ مثل هذه الدراسة من شأنها أن تجيب عن بعض الإشكالات المطروحة في الموضوع ومنها: ماهية الأدوار التي كان يقوم

بها العلماء لصالح الثّورة؟ ولماذا لم تعلن قيادة الجمعية في الداخل تأييدها الصريح للثورة قبل جانفي 1956م رغم انخراط الكثير من أعضائها في العمل الثّوري؟

**1- شخصية الشّيخ التّبسي وتوجّهاته الثّورية**

الشّيخ العربي بن بلقاسم التّبسي من مواليد 1895م بقرية "اسْطَحْ" بضواحي مدينة تبسة، وهو واحد من أعلام النّهضة والإصلاح في الجزائر. دَرَسَ بجامع الزيتونة وبجامع الأزهر ثم عاد إلى الجزائر ليسير على خطى صاحبيه: عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، وينهج نهجهما في مقاومة الاستعمار وخدمة العربية والإسلام في الجزائر. كان أكثر عمله في ميدان التربية والإصلاح في مدينة تبسة التي غدت مع وجوده هناك، ومع المؤسّسات التي أنشأها بالتعاون مع الشّعب، مضرب المثل في النّهضة الإصلاحية والحياة الثّقافية النّشِطة.

كان الشّيخ التّبسي أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البارزين، وقد تولى العديد من المهام فيها، فهو كاتبها العام في منتصف الثلاثينات، ونائب رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي بعد وفاة ابن باديس، ولما تأسّس معهد ابن باديس سنة 1947م كُلّف بإدارته، وعندما سافر البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي سنة 1952م أُسندت إليه رئاسة الجمعية بالنيابة، واستمر على ذلك إلى قيام الثورة واستشهاده سنة 1957م.

عُرف الشّيخ العربي باتساع معارفه العلمية في علوم الشّريعة الإسلامية وفنون اللّغة العربية وآدابها، صاحب شجاعة في إبداء الرّأي ومحاربة البدع وفي تصدّيه لخصوم الإصلاح من المستعمرين وأعوانهم. كان متفانيا في خدمة أهداف جمعية العلماء، يشارك بقلمه ولسانه وجهده في تبليغ رسالتها العلمية والإصلاحية. كان مربيا فاضلا، وكاتبا قديرا، ومديرا ناجحا. وقد شهد بفضله وكفاءته في العلم والعمل الإمامان ابن باديس والإبراهيمي[3].

وكان الشيخ التبسي عالما ملتزما بمقتضيات علمه في فكره وسلوكه، يسعى جاهدا لجعل هذا العلم واقعا ملموسا في حياة الناس وثقافتهم وسلوكهم، لا مجرد معلومات تملأ عقولهم دون أن تُحدث أي أثر في واقعهم.

كان يؤمن بمنهج التّغيير الذي رسمته الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11)، ويرى أنّ التغيير الحقيقي للمجتمع يتم بالتّربية والتعليم والتوعية الثّقافية، لا باحتراف السّياسة والعمل الحزبي، وأنّ الأمة المتعلمة هي الجديرة بالحرّية والحياة الكريمة[4].

كان وطنيا صادقا، ثائرا بطبعه، يحارب الاستعمار ويعاديه إلى النّهاية، ومما كان يوصي به مواطنيه قوله: «من عاش منكم فليعش بعداوة فرنسا، ومن مات فليحمل معه هذه العداوة إلى القبر!»[5].

يؤمن بأنّ الاستعمار "لا يفهم إلاّ ما كانت لغته القوة والسّلاح"[6]، لكن قبل حمل السلاّح ينبغي إعداد جيل مسلّح بالعقيدة الصّحيحة، وبفكر نيّر، مستعد لحمل السّلاح وتقديم التّضحيات في سبيل حرّيته وكرامته، «لأنّ تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال، متعذر ما لم تتحرّر العقول والأرواح من الأوهام في الدين والدنيا»[7].

وكان الشيخ التبسي، وهو يعمل في ميدان الإصلاح، يفكر في الثورة المسلّحة، ويهيّئ الشّعب لها، نفسيا وفكريا وسياسيا، لأنّ المواجهة المسلّحة هي - في نظره - النّهاية المنطقية والحتمية للمواجهة الدائرة في الجزائر منذ أمد بعيد. وقد تواترت الشّهادات في هذا الموضوع، ولا بأس أن نذكر بعضها:

أثناء الحرب العالمية الثّانية اعتُقل الشيخ التّبسي وسُجن وكاد أن يُعدم، والسّبب في ذلك هو أنّ جماعة من سكان النّمامشة عثروا على كمية من الأسلحة كان قد ألقى بها الألمان في منطقتهم القريبة من الحدود التونسية، على أمل أن يستخدمها الجزائريون ضد فرنسا، لكن فرنسا عرفت ذلك، وطلبت من سكان تلك الجهات تسليم ما عثروا عليه من الأسلحة، فأراد السكان استشارة الشيخ التّبسي في الأمر، فأشار عليهم بأنّه ما دامت فرنسا قد كشفت الأمر، فعليهم ردّ كيدها بتسليم جزء قليل منها، وإخفاء الباقي، "حتى يأتي وقت استعمالها"، وقد كان بين أولئك من أوشى بالشيخ إلى السّلطات الفرنسية، فلفّقت ضده تهمة التعاون مع الألمان[8]!

وفي السّياق ذاته ذكر الشّيخ محمد أمقران بن مالك[9] أنّه زار رفقة صديق له أستاذه الشّيخ التّبسي في قسنطينة وهو طريح الفراش بدار الطّلبة، يقول الراوي: «وما أن سلّمنا عليه حتى نسي مرضه، وانهمر علينا كعادته

بسيل من النّصائح.. ولما استأذناه في الانصراف، وقبل أن يأذن لنا، أمسك بيدينا وقال: عاهدوني على حمل السّلاح في وجه فرنسا إن أزفت ساعة ذلك..»[10]، وكان ذلك - حسب الراوي - قبل اندلاع الثّورة بشهرين أو ثلاثة.

ويُذكر أيضا أنّ الشّيخ التّبسي لما مرّ بمصر، في طريق عودته من الحجاز بعد أداء فريضة الحج (في سنة 1954م)، التقى بطلبة جزائريين يدرسون بالأزهر فأكد لهم على ضرورة تعلّم استعمال الأسلحة والمتفجّرات للاستعداد للثّورة المسلحة في المستقبل[11]. وحين تقابل مع الرئيس جمال عبد الناصر ضمن وفد جمعية العلماء، قال الشيخ التّبسي لعبد الناصر: يجب أن تساعدونا. فقال له عبد الناصر: بلد الأزهر يساعدكم طبعا. فقال له الشيخ ما معناه: الأزهر يعطينا فتاوى، ونحن نخاطب رأس الضباط الأحرار ليساعدنا بالسّلاح[12].

وكان الشّيخ التّبسي يرى أنّ وحدة الصّف هي من شروط الانتصار ومقتضياته في هذه المواجهة الحاسمة التي لابد آتية، لذلك لما سُئل التبسي عن "الوحدة" في الاستفتاء الذي أجرته جريدة "المنار" حول الموضوع في سنة 1953م كانت إجابته كما يلي: «الاتحاد في الجزائر ضروري لأنّ المنقذ في وقت الخطر هو تكتل الشّعب بأكمله.. فالحالة بالجزائر لا تبرّر تعدد الأحزاب، فبقاء الأحزاب فيها إطالة لعمر الاستعمار.. فلابد من اتحاد "شعبي" لا "حزبي"، أي اتحاد بمعنى "وحدة الشّعب" لا اتفاق الأحزاب.. فالاتحاد الشّعبي هو الذي يستطيع أنّ يغيّر الحال في الجزائر..»[13]. والواقع أنّ ما دعا إليه الشيخ التبسي هنا، هو تماما، ما وقع خلال الثّورة التّحريرية!

هكذا كان الشّيخ التّبسي ورفاقه في جمعية العلماء يُعدّون الشّعب للكفاح روحيا وفكريا، بينما كان رجال آخرون في تشكيلات سياسية تُعدّ الشّعب سياسيا، ثم في الأخير ماديا بجمع السّلاح وتوفير المال وغيره، لتجتمع جهود الجميع في الأخير على صعيد واحد، في ثورة التّحرير التي صنعت معجزة النّصر، وحقّقت حلم أجيال من أبناء الجزائر الذين سقطوا في ساحات الوغى عبر مراحل الاحتلال البغيض وهم يتوقون إلى تحرير الوطن.

**2- تأييد الشيخ التّبسي للثّورة منذ بدايتها**

لأنّ موقف الشّيخ التبسي من اندلاع الثورة التحريرية يندرج ضمن موقف جمعية العلماء ككل، ويرتبط به ارتباط الجزء بالكل، فإنّ المنهجية الصّحيحة تقتضي منا إعطاء لمحة ولو سريعة عن موقف جمعية العلماء من الثورة، وإسهامها في الكفاح الوطني خلال هذه المرحلة، وبخاصة في داخل الوطن.

حين اندلعت الثورة في الجزائر في نوفمبر 1954م كان الشّيخ البشير الإبراهيمي، وهو رئيس جمعية العلماء، ما يزال في بالقاهرة، ومن هناك أعلن الإبراهيمي تأييده للثورة، ودعا الشّعب الجزائري إلى مناصرتها، وخوض غمار الجهاد في إطارها، وهذا في ثلاث بيانات أصدرها في النّصف الأوّل من شهر نوفمبر باسم مكتب الجمعية بالقاهرة رفقة الشّيخ الفضيل الورتلاني، وهذه البيانات نُشرت وأذيعت في وقتها، ويمكن لكل قارئ أن يطّلع عليها[14]، وقد كان لها تأثير بالغ في تقبّل الجزائريين للثّورة في الدّاخل، كما كانت بمثابة جواز مرور لممثلي الثّورة في الخارج إلى قادة الدول العربية والإسلامية الذين لم يكونوا يعرفون مسؤولا واحدا من مسؤولي الثورة الجزائرية[15]، وهذا يعني أنّ الشّيخ الإبراهيمي كان في طليعة الزعماء الجزائريين المباركين لهذا الحدث العظيم الذي طالما انتظره وأعدّ له الرّجال، وبشّر به قبل ذلك، أما بعد ذلك فقد قام بأدوار سياسية وإعلامية في غاية الأهمية لصالح الثورة، رفقة الفضيل الورتلاني ومن التحق بهما فيما بعد من قادة الجمعية في الأقطار العربية والإسلامية، وكذا طلبتها وأساتذتها الذين توزّعوا على مكاتب جبهة التّحرير التي تم فتحها في تلك الأقطار.

وفي داخل الوطن أيضا لم تتأخر الجمعية عن الركب. فمعهد ابن باديس بقسنطينة قد أصبح بعد نشوب الثورة عام 1954م معقلا من معاقل الثورة، ومركزا من أهم مراكزها، إلى أن أغلقته في سنة 1957م سلطات الاحتلال وجعلته مركزا للاستنطاق والتعذيب[16]، فقد دلّت الشّهادات والوقائع على أنّ الكثير من طلاب المعهد ومعلميه كانوا يقومون بأدوار سرّية لصالح الثّورة، والتحق بعضهم منذ البداية بجيش التّحرير، والكثير منهم التحقوا بصفوف

المجاهدين بالجبال ابتداء من مطلع سنة 1955م، وكان ذلك بتشجيع من شيوخ المعهد وعلى رأسهم مدير المعهد الشّيخ العربي التّبسي، فكان لهم أعظم الأدوار كجنود وضباط وقادة عسكريين، فضلا عن أدوار أخرى كقضاة، ومحافظين سياسيين، وكتّاب في وحدات جيش التّحرير[17]. وكذلك كانت دار الطلبة التّابعة للمعهد، فقد كان رُسل الثّورة إلى الولايات ينزلون بها في ذهابهم إليها ورواحهم منها، كالشّهيد عمارة رشيد[18] حين أرسله عبان رمضان إلى قيادة المنطقة الثّانية والتي قاده إليها الأستاذ إبراهيم مزهودي، وكذلك سعد دحلب حين أرسله عبان للقاء زيغود يوسف في الشّمال القسنطيني[19]. وحسب الشّيخ أحمد حماني فإنّه قد تم تنظيم الاتّصال بين الولايات وتعيين من تعتمد عليهم الجبهة في كل مدينة من عنابة وحتى الجزائر العاصمة[20].

وكانت إطارات الجمعية، وخصوصا أولئك الذين يشتغلون في ميدان التفتيش، ممن تسمح لهم مهنتهم بالتنقل من مكان إلى آخر، أو الذين يجمعون الاشتراكات لجريدة البصائر، كانت لكل هؤلاء مهمة ظاهرة وأخرى خفية، مثل جمع الرسائل وتوزيعها، والاتّصالات السرّية بين أفراد الجبهة وأفراد جيش التّحرير، أي كانوا يقومون بمهام محدّدة بالموازاة مع مهامهم في إطار الجمعية[21]، كما كان عدد من معلميها في القرى يؤدون مهمة مؤثّرة في التّوعية وحثّ الناس على الالتحاق بالثورة وتقديم المشورة[22].

وفي هذا الخضم كان الشّيخ العربي التبسي في طليعة العلماء العاملين لصالح الثورة، إذ نذر نفسه - منذ البداية – لهذه المهمة، فقد ذكر الأستاذ محمد الميلي في مذكراته أنّ الشيخ قد سلّم في اليوم الثّاني من عمر الثورة، أي في 2 نوفمبر، خمسمائة ألف فرنك من ماله الخاص لأحد المناضلين ليُوْصلها للثوار[23]. إنّ هذه المعلومة تبدو بسيطة، لكن أوردناها لما لها من دلالة، خاصة مع النّقص الفادح في المعلومات في موضوعنا بسبب الطّابع السرّي الذي كان يسيطر على تحركات كل من يعمل لصالح الثورة في تلك الظروف الصّعبة. فهذه المعلومة - إن صحّت - تجعلنا نرجح احتمال أن يكون الشّيخ العربي التبسي، لا أقول على علم مسبق بتاريخ اندلاع الثورة على وجه الدّقة، وإنمّا قد يكون قد أُبلغ بطريقة أو بأخرى بأنّ هناك جماعة مخلصة وجادة في صدد

التّحضير للثورة، فمن غير الممكن أن يكون الشيخ التبسي مع الثّورة منذ يومها الثّاني، وهو لا يعلم شيئا عن الجهة التي كانت من وراء التحضير للثورة وإعلانها، خاصة وأنّ الثورة في بدايتها كانت من عدة وجوه عبارة عن مغامرة مجهولة العواقب. وإذا كنا لا نملك ما يؤكد أو ينفي هذا الاحتمال، فإنّنا لا نستبعد، وهذا بالنّظر إلى المكانة العالية التي يحتلها الشّيخ التّبسي بين الناس آنذاك، والثّقة الكبيرة التي يحظى بها لدى المناضلين، أن يكون الشيخ قد استُشير أو أخبر بشأن الثورة عشية اندلاعها أو في اليوم الأوّل من عمرها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الشيخ العربي التبسي قد أقبل منذ البداية على مناصرة الثورة بأمواله وأفكاره ومساعيه المتنوعة، كيف لا وهو الذي أفتى في بداية الثورة بأنّه «لا يجوز لأي مسلم دون عذر أن يتخلّف عن الجهاد »[24]. فكان يتحدث عنها في مجالسه مع الخاصة ومَنْ يثق بهم من العامة، يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله بالنّفس والمال وكل شيء، وكان يجمع الأموال لها، وكان كثير من النّاس لا يتبرعون بالمال للثّورة إلا على يده لثقتهم فيه[25].

**3- الشّيخ التّبسي في خدمة الثّورة**

إلى جانب نشاطاته التربوية والإدارية التي كان يقوم بها في العلن، بصفته رئيسا لجمعية العلماء في الداخل، أصبح الشيخ العربي التبسي منذ اندلاع الثّورة يضطلع بأدوار سرّية عظيمة في خدمة الثورة. ففي بداية الثّورة اتصل به مجاهدو ناحية النمامشة من المنطقة الأولى وعلى رأسهم الشهيد شيحاني بشير، يطلبون منه مساعدة الجمعية في توفير الألبسة والأغطية لمواجهة قساوة الشتاء ويعربون عن رغبتهم في مقابلته بمكان قريب من تبسة، غير بعيد عن الجبل الأبيض. ولأنّ خروج الشّيخ التّبسي من تبسة أمر يصعب إخفاؤه على إدارة الاحتلال وعيونها، فقد استقر الرأي، وبعد التشاور، على انتداب إبراهيم مزهودي لتلك المهمة، وهو من تلاميذ الشيخ والمقربين إليه وكان مفتشا عاما للتعليم بمدارس جمعية العلماء، وهكذا كان أوّل اتّصال بالثّوار في ناحية تازبنت[26].

مهمة الاتّصال هذه امتدت بعد ذلك لتشمل الاتّصال بزيغود يوسف بالمنطقة الثّانية، وعبان رمضان بالعاصمة. فحسب شهادة الأستاذ المجاهد

مصطفى بوغابة، فإنّ زيغود يوسف أرسل إلى الشيخ التّبسي يستفتيه في مسألة إفطار المجاهد في رمضان، فأفتى بجواز ذلك، وصاغ الفتوى الشيخ أحمد حماني[27]. أما عبان رمضان الذي التحق بالثورة في مطلع سنة 1955م، واستقر بالجزائر العاصمة، وأخذ يتّصل بمختلف الشّخصيات الجزائرية بهدف ضمّها إلى الثورة، فقد كان على اتّصال مستمر مع الشّيخ التّبسي، وذلك عبر رسل يثق فيهم الطرفان، منهم الشيخ الحسين بن الميلي[28] والشيخ إبراهيم مزهودي[29]. ففي شهادة للشيخ الحسين بن الميلي، ذكر أنّ عبان كان قد أرسله في مستهل شهر ماي من سنة 1955م ليدعو أعضاء جمعية العلماء للانضمام فرادى وللقيام بدور المناصر لجبهة التحرير الوطني. يقول الشيخ الحسين: «لقد استقبلني الشيخ العربي التبسي في مكتبه (بمركز جمعية العلماء بحي القصبة بالعاصمة)، وحينما فاتحته في الموضوع الذي جئت من أجله، قال لي بأنّه شخصيا مستعد لتنفيذ كل ما تأمر به الجبهة، وأنّه مؤمن بأنّ الكفاح المسلّح هو أسلم وأقصر طريق للتخلّص من الاستعمار، أما باقي الأعضاء فإنّه أكّد لي عدم استعدادهم في ذلك الوقت للانضمام إلى أيّة حركة تشتمل العنف خاصة وأنّهم كانوا ممثَّلون رسميا في الوفد الذي مازال لم ينته من التفاوض مع السيّد سوستيل، ثم طلب مني أن أدخل إلى المكتب المجاور لأتحدث شخصيا مع الشّيخ خير الدين..»[30].

إنّ كلام الشّيخ التبسي هنا يشير إلى حقيقة ينبغي التذكير بها، وهي أنّ قادة جمعية العلماء في الداخل لم يكونوا في هذه الفترة على نفس المستوى من حيث الاستعداد لتأييد الثّورة، وأنّ هناك تيار ضمن الجمعية ظلّ حذِرًا ومترددًا في موقفه من الثّورة في عامها الأوّل، وعلى رأسهم الشّيخ محمد خير الدين الذي كان ضمن الشّخصيات الجزائرية التي قابلت الحاكم العام الفرنسي "جاك سوستيل"[31] في ماي 1955م، وهي المقابلة التي كان الشّيخ العربي التّبسي أوّل من أدانها[32]، وكذلك فعلت الجمعية عبر جريدتها "البصائر"[33]، كما أدانتها قيادة جبهة التحرير[34]، وقد سعت هذه الأخيرة لإقناع أصحاب هذا الموقف بمساندة الثورة وذلك عن طريق ممثّلها في العاصمة المرحوم عبان رمضان فكان ممن

التقاهم عبان في هذا الإطار الشّيوخ: خير الدين[35]، عبد اللّطيف سلطاني، وعباس التركي[36].

وممن كان على اتّصال مستمر بالشّيخ التّبسي أثناء الثّورة للفتوى والاستشارة الشّهيد عميروش الذي كان يعتبر الشيخ التّبسي وعلماء الإصلاح مشايخه[37]، وقد أرسل الشيخ التبسي إلى ولايته أموالا وآلات الكتابة والطباعة والسّحب[38]. وبعث القائد عميروش يوما من جبال القبائل رسوله إلى الشيخ التبسّي وهو في الجزائر العاصمة يخبره بأنباء الجهاد، ويسأله وصية يعمل بها في جهاده، وكانت الأيّام عصيبة والمعارك على أشدّها في جبال جرجرة وغيرها من مناطق الوطن، لم يجد الشّيخ التبسي وقتا لكتابة الوصيّة، وخاف التّفتيش الشّديد في المدن والطّرق، فيعثر العدو على الرّسالة، فسلّم لرسول القائد عميروش مصحَفًا صغيرًا، وقال له: بلّغه سلامي ودعواتي، وابتهاجي العظيم بجهادهم وانتصاراتهم، وقل له: «هذا المصحف الشّريف هو وصيّتي له!»[39].

وكان الشّيخ التّبسي أيضا على اتّصال مستمر مع الشّيخ سعيد البيباني، معتمد جمعية العلماء في فرنسا، بهدف تنظيم الجالية الجزائرية وتأطيرها لصالح الثّورة، وفي هذا السّياق يذكر السيّد علي بوتقجيرت[40] أنّ الشيخ البيباني قد أرسله إلى الجزائر في شهر فيفري من سنة 1956م، ليزور العائلة، ويتّصل بالشيخ العربي التّبسي، وعند عودته إلى باريس، كلّفه الشيخ التبسي بإبلاغ الشيخ سعيد البيباني رسالة واضحة ودقيقة، مفادها: أن يقوم بتجنيد مناضلين من بين المغتربين، ويرسلهم إليه، وزوّده بكلمة السّر، وبهذه الطريقة يقول علي بوتقجيرت: « تم تجنيد الكثير من الجزائريين المقيمين بفرنسا، وتم إرسالهم إلى أرض الوطن ليلتحقوا بصفوف الثّورة في الجبال.. »[41].

وذكر الشّيخ أحمد حمّاني الذي أُسندت إليه مسؤولية لجنة التعليم العليا في سنة 1955م، أنّه كان خلال سنوات 55- 56- 1957م يسافر أسبوعيا بين قسنطينة والجزائر العاصمة للقيام بأعمال اللّجنة، فكان الشيخ التبسي كثيرا ما يحيل إليه بعض الأعمال الهامة لإنجازها، وخصوصا ما يتعلق بالاتصال بالجبهة ورجالها، وبجيش التّحرير وأعماله[42].

وكان الشّيخ التّبسي يود إشراك كل الجزائريين في الثورة، مهما كانت توجهاتهم السّياسية، حتى أولئك الذين كانوا ما يزالون يقبعون في مجالس اصطنعها الاستعمار بانتخابات مزيفة ليوهم الرأي العام أنّ الجزائريين لهم من يمثّلهم في هذه المجالس. فقد وجّه في أكتوبر من عام 1955م برقيتين نشرتهما جريدة "الصباح" التونسية في عددها الصادر بتاريخ 15 أكتوبر 1955م، واحدة موجهة إلى الدكتور ابن جلول نائب قسنطينة في البرلمان الفرنسي، وابن سالم نائب في المجلس الجزائري، يطلب منهما العمل على إخراج الجزائر من سيطرة الاستعمار، وبرقية أخرى وجّهها إلى عبد القادر السايح، رئيس المجلس الجزائري آنذاك، يندد فيها بموقفه المؤيّد للنظام الاستعماري ويدعوه إلى مناصرة القضية الوطنية[43]. وحين أدلى السيد عبد الرحمن فارس، وكان عضوا بالمجلس الجزائري، بحديثه المدوي لصحيفة "لوموند" في 26 سبتمبر 1956م[44]، والذي كان له صدى كبيرا في الجزائر، كان الشّيخ العربي التبسي في طليعة المهلّلين له، وقد حرص بالمناسبة على استقبال فارس بمكتبه ليعبر له عن ارتياحه وأعضاء الجمعية لهذا التّصريح[45].

وذكر فرحات عباس أنّه حين عزم على مغادرة الجزائر بتكليف من جبهة التّحرير في أفريل 1956م، زاره الشّيخ العربي التّبسي في مقر إقامته بالعاصمة لتوديعه، فأوصاه الشّيخ قائلا: « لا أدري إن كنا سنلتقي مرة أخرى، لذلك وصيتي لك أن لا تنسى أنّ الجزائر مسلمة، فباسم الإسلام يجاهد الجزائريون، وباسمه يُقبلون على الموت، ولا تَعُد إلى هذه الأرض إلاّ بعد تحريرها، وعندما يحين وقت بناء هذا الوطن اجعلوا الإسلام في قلب اهتماماتكم، والله يعينكم.. »[46].

**4- بلاغ جمعية العلماء في جانفي 1956م ودور التّبسي فيه**

في 7 جانفي 1956م عقدت جمعية العلماء اجتماعها العام بمركزها بعاصمة الجزائر برئاسة الشيخ العربي التبسي[47]، وإثر هذا الاجتماع أصدرت الجمعية بلاغا رسميا نُشر في جريد البصائر بعنوان "بلاغ من الاجتماع العام لجمعية العلماء عن الحالة الحاضرة في القطر الجزائري وموقف الجمعية منها"[48]، وقد تضمن نقاطا عديدة، أهمها: تهنئة تونس والمغرب باستقلالهما، والتنديد بما كان يجري في الجزائر من فضائع، وإلقاء المسؤولية على النظام الاستعماري عما

عاشته الجزائر من مصائب وويلات منذ سنة 1830م، كما احتج المجلس على ما يُرتكب في مختلف جهات الوطن من موبقات باسم القضاء على الثورة، وأعلن أنّ كل سياسة تقوم على ترقيع الماضي وإجراء "إصلاحات"، إنّما هي عبث وتيئيس يؤدي إلى الانفجار. وبهذه اللّغة الصريحة يعلن ويؤكّد المجلس حقيقتين بارزتين، وهما:

الأولى- لا يمكن حلّ القضية الجزائرية إلاّ بالاعتراف العلني والصريح بكيان الأمة الجزائرية الحرّ، وجنسيتها الخاصة وحكومتها القومية ومجلسها التشريعي.

الثانية- لا يمكن وضع حدّ لحالة الحرب الحاضرة والإقدام على بناء نظام حرّ جديد، إلاّ بالتفاهم الصّريح مع سائر الممثلين الحقيقيين للشّعب الجزائري الذين أفرزهم الكفاح.

وقد وقّع هذا البلاغ الشّيخ العربي التّبسي نائب رئيس جمعية العلماء، كما وقّعه الشّيخ أحمد توفيق المدني، الكاتب العام للجمعية.

لقد جاء البلاغ قويا، وصريحا في تأييد الثورة، فقضى على مخطط فرنسا لعزل جبهة التحرير وإيجاد "قوة ثالثة" للتفاوض معها. وقد ذكر محرّر البلاغ، وهو الشّيخ أحمد توفيق المدني، أنّه حين تلاه على أعضاء الجمعية وسألهم إذا كانوا يوافقون عليه؟ أجاب الشّيخ العربي التبسي: « من لم يوافق عليه فليس بمسلم »[49]!

وإثر هذا البلاغ انضم أغلب قادة الجمعية علنا إلى جبهة التّحرير، منهم أحمد توفيق المدني والشّيخ العباس بن الشّيخ الحسين، اللّذان التحقا في أفريل 1956م بالقاهرة، بأمر من عبان رمضان، والشّيخ خير الدين الذي عُيّن ممثلا لجبهة التحرير في المغرب الأقصى. والواقع أنّ هذا البيان الرّسمي المساند للثورة ما هو إلاّ إقرار شكلي جاء ليؤكد ما حصل على أرض الواقع، وقد سبق أن بيّنا كيف أصبح الكثير من أعضاء الجمعية يؤدون واجبهم في صفوف الثورة وبصور مختلفة منذ بداية الثورة، لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا تأخّر إعلان الجمعية في الداخل عن تأييدها للثورة بصفة علنية ورسمية إلى هذا التّاريخ؟ بينما أعلن الإبراهيمي والورتلاني صراحة تأييدهما للثورة في

بيانات تم إصدارها باسم مكتب الجمعية بالقاهرة منذ مطلع شهر نوفمبر 1954م!

ربما ركان للتردد الذي ميّز موقف بعص قادة الجمعية دور في هذا التأخّر، غير أنّ السبب الرئيسي لذلك يعود - في رأيي - إلى كون إعلان الجمعية عن تأييدها للثورة منذ البداية سوف لن يكون لا في صالح الثورة ولا في صالح الجمعية نفسها، ذلك أنّ مثل هذا القرار سيؤدي حتما إلى غلق مؤسّسات الجمعية التربوية والإعلامية في وقت مبكر، واضطهاد قادتها وأنصارها من معلمين وطلبة ووُعّاظ ووضعهم تحت الرقابة كما حدث بعد صدور بلاغها في جانفي 1956م، وحينئذٍ ستفقد الثّورة حلقة كان وجودها ضروريا بالنسبة إليها في ظروف كانت الرغبة السائدة لدى قادة جبهة التّحرير هي تجذير الثورة في الأوساط الشّعبية، وتعميقها لتصل كل فرد وكل بيت جزائري، إذ كان أنصار الجمعية أكثر الأفراد المهيّئين لأداء هذه الأدوار الهامة بالنسبة للثورة[50].

ولا شك أنّ قيادة الثورة قد قرأت لهذا الأمر حسابه، لذلك لم تطلب أبدا من جمعية العلماء ما طلبته من كل الأحزاب السّياسية الأخرى من حلّ نفسها إذا أرادت الدخول ضمن جبهة التّحرير، وإنّما طلبت منها دعم الثّورة بوسائلها كالإعلام والاتّصال والدعاية والتموين[51]، بل إنّ الجبهة كانت تشجع عمل أعضاء الجمعية في مجال التعليم والإرشاد لأنّه يخدم الثورة، فقد ذكر الشيخ أحمد حماني أنّ الجبهة أوعزت إلى المدارس التي كانت تابعة لحركة الانتصار أن تنضوي تحت مدارس جمعية العلماء[52]، وأنّ الولاية الثانية التي كان على رأسها الشهيد زيغود يوسف أرسلت بخمسة ملايين فرنك من صندوق الثورة لإتمام تجديد بناء مدرسة التربية والتعليم في قسنطينة[53]، وأنّ قيادة الثّورة في ناحية الصومام قد ألحّت في إرجاع أحد معلمي الجمعية، وهو عبد المالك فضلاء، إلى تازمالت لخدمة الثورة حين نقلته الجمعية إلى مدينة حجوط[54]. وذكر الشيخ محمد الصالح بن عتيق في مذكراته أنّ قيادة الثّورة اتصلت بالشّيخ العربي التّبسي، وألحت عليه في إرجاعه (ابن عتيق) إلى البليدة التي غادرها إلى مسقط رأسه في بداية الثورة[55]. وكل هذا في الحقيقة قليل من كثير من

الأمثلة التي تدل على حرص قادة الثورة على استمرار التعليم في المدارس، فضلا عن تشجيعه وتنظيمه حتى في الجبال والسّجون[56].

وكان العقيد عميروش غالبا ما يرفض طلب الالتحاق بالجبال من الطّلبة والمعلمين، وبدلا من ذلك كان يشجّعهم على مواصلة ما هم فيه في المدارس والزوايا، وحين تعرضت أغلب هذه المؤسسات للتخريب في سنة 1956م، أرسل الكثير من الطلبة لمواصلة دراستهم في تونس أو غيرها من البلاد العربية بهدف تحضير إطارات الجزائر المستقلة، وهذا العمل تكفلت به بعد ذلك قيادة الحكومة المؤقتة. وعلى كلٍ هذا يدل على ما كان يتحلى به قادة الثورة الجزائرية، أو بعضهم على الأقل، من وعي وإدراك لأهمية المدرسة والتعليم، لذلك لم تُنسهم أهوال الحرب الاهتمام بهذا الجانب الهام[57].

ويؤكّد ما ذهبنا إليه بالنّسبة للجمعية، ما أورده الأستاذ أحمد طالب الإبراهيمي في مذكراته، إذ ذكر أنّ الشيخ العربي التّبسي حين استقبله في مركز الجمعية بالجزائر العاصمة في أوت 1955م، قال له بوجيز العبارة: « لما وجّه الشيخ الإبراهيمي نداءه من القاهرة إلى الشّعب الجزائري في نوفمبر الماضي لدعم الكفاح المسلح، أصاب بحكمة عندما امتنع عن إقحام الجمعية حتى لا يُعرّض أعضاءها للقمع، ومؤسّساتها للإغلاق »[58].

**5- صلابة الشّيخ التّبسي أمام الاستعمار ورفضه مغادرة الجزائر**

كان الشّيخ العربي التّبسي كثير التنقل خاصة بين قسنطينة والجزائر العاصمة، وقد ثقلت عليه المسؤوليات عندما كُلّف بإدارة جمعية العلماء بعد سفر رئيسها الشيخ الإبراهيمي إلى المشرق العربي، ثم جاءت الثورة فتعددت مهامه وتشعّبت، لكن الشيخ التبسي بما عُرف به من إخلاص وتفانٍ في سبيل الله والوطن، استطاع أن ينهض بكل تلك المهام ولو على حساب صحّته وأسرته، لأنّه كان يدرك جيّدا - كما قال يوما - : « إنّه لا يمكن إرضاء الإسلام والوطن، وإرضاء الزوج والأبناء في وقت واحد، إنّه لا يمكن للإنسان أنّ يؤدي واجبه كاملا إلاّ بالتضحية »[59].

في سنة 1956م انتقل الشّيخ التّبسي إلى العاصمة ليشرف على إدارة جمعية العلماء فيها بعد أن خرج أغلب أعضائها البارزين إلى البلدان العربية،

ونقل معه عائلته وسكن بمدرسة حي "بلكور" التي تولى الإشراف عليها، وفتح بالمسجد المجاور لها المسمى بالجامع الجديد فرعا لمعهد ابن باديس بلغ عدد تلاميذه أربعين[60]، وكان يلقي دروس التّفسير للعامة في المسجد الذي كان يكتظّ بالمصلين، وكانت دروسه قوية يمزجها في أسلوب حكيم بالدّعوة إلى الجهاد وتأييد الثورة[61]، واستمر كعادته في تتبع أخبار الثورة، والاتّصال ببعض قادتها في الجبال وفي المدن.

لاحظت السلطات الاستعمارية مدى النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الشّيخ التبسي في أوساط الشّعب، فحاولت التأثير عليه بشتّى الطرق لعزله عن حركة الثورة، فطلب منه المقيم العام الفرنسي "روبير لاكوست" أن يهدئ الشّعب، فما كان من الشّيخ إلا أن رفض طلب "لاكوست" قائلا: « إنّني صادق منذ نعومة أظفاري وأنا الآن شيخ كاهن وتريدون مني أن أكذب على الشّعب. كلا لن أتحدث »[62]، وبعد اعتقال الزعماء الخمسة طالبه "لاكوست" - كمفوض من قِبل حكومة باريس - بالتفاوض معه لإيجاد حل للقضية الجزائرية، فأجابه الشّيخ: مفتاح الحل بأيديكم أنتم، مما أدى إلى وضعه تحت الإقامة الجبرية بين منزله بحي بلكور ومركز جمعية العلماء بحي القصبة[63]. ولما عاودت سلطات الاحتلال محاولتها وأرسلت إليه مندوبين عنها محاولين دفعه إلى التفاوض وإنهاء الحرب، كان ردّه عليهم حازمًا: «إذا أرادت فرنسا إيقاف الحرب فلتُفاوض جبهة التّحرير، أمّا العربي التبسي وغيره، فليس لهم أن يتكلّموا باسم الشّعب وثورته، ولا يستطيعون إيقاف ثورة الأمّة كلّها»[64].

أدرك الشّيخ التّبسي أنّه مهدد في حياته بسبب مواقفه المؤيّدة للثّورة، ومع ذلك اختار البقاء إلى جانب الشّعب، ورفض الإصغاء لزملائه الّذين نصحوه بمغادرة الجزائر مؤقتا خوفا على حياته، واقترحت عليه قيادة الثّورة مرات عدة أن يلتحق بتونس أو مصر، ويتجنب الأخطار التي تهدده، لكنه كان دائما يرفض، وهذا منذ سنة 1955م. وفي هذا الصّدد يقول محمد زروال: إنّ الأزهر شريّط، وهو من قادة الثّورة في الأوراس، بعث بمن حمل رسالة إلى الشيخ التبسي موضوعها يدور حول وجوب التحاق الشيخ بالمجاهدين في الجبل بهدف إرساله إلى تونس أو القاهرة حيث يقوم بدوره الطبيعي في الميدان الفكري والثقافي والسياسي، ولكن الشيخ أجاب عن تلك الرسالة بورقة صغيرة كتب

فيها: «سيروا على بركة الله فإنّ الله معكم»، وأعطى حامل تلك الرسالة مبلغا ماليا قدره خمسون ألف فرنك ليبلّغه إلى الأزهر شريّط إعانة شخصية منه للثورة، وأوصى حامل الورقة بوجوب ابتلاعها إن هو تأكد أنّ العدو سيقبض عليه[65].

ويروي حمادي الهاشمي الذي حمل إلى الشّيخ التّبسي رسالة من قيادة الولاية الأولى في يوم من أيام سنة 1956م رفقة الطّاهر حرّاث، تطلب منه الخروج من الجزائر، أنّ الشيخ التّبسي قد أجابهما بقوله: « أنأمر الشّعب بالثّورة ثم نخرج نحن ونتركه؟ "هُنَا يْمُوتْ قَاسِي!"»[66]. وتكرّرت المحاولة من قيادة الثّورة في العاصمة، فكان الشيخ يجيب: « إنّ خروجي اليوم والوطن في حرب، يعدّ فرارًا من الزحف الذّي هو أكبر الكبائر، أنا لو كنت خارج الوطن ووقع هذا فيه، لدخلت فورا.. وإذا خرجت أنا وأمثالي في هذه الظروف، فمن يشجع الأمّة ويحثّها على مساندة الثورة؟ إنّ الحالة خطيرة حقًّا، وإنّ الأعداء ليهدّدوننا في حياتنا في كلّ لحظة، فماذا نصنع؟ أنترك الميدان لهم؟ كلاّ وألف كلاّ! سأمكث هنا في الجزائر، وليكن ما يكون! »[67]. بل إنّ الشيخ التبسي كان يتأسّف لأنّ سِنُّه وصحّته لا يسمحان له بحمل السّلاح، فكان يقول: « لو كنت في صحتي وشبابي، ما زدت يوما واحدا في المدينة، أُسرِع إلى الجبل، أحمل السّلاح وأقاتل مع المجاهدين! »[68].

**5- استشهاده**

أمام هذه الصّلابة التي أبداها الشيخ التبسي أمام المستعمرين، وإدراكا منهم لخطورة بقاء مثل هذه الشخصية العلمية البارزة إلى جانب الثورة، رأوا أنّه من الضروري التخلص منه. لكن كيف؟ إنّ اعتقال الشّيخ أو قتله علنا سوف يزيد من حماس الشّعب للجهاد وحقده على المستعمر، لذلك كان من مكرهم أن عهدوا إلى منظمة "اليد الحمراء" باختطافه واغتياله، وهذه المنظمة الإجرامية التي تضم غلاة الكولون صنعتها المخابرات الاستعمارية لتنفيذ جرائمها ضد الجزائريين عامة والمثقفين منهم بالخصوص، ثم استبعاد أية تهمة عن السّلطات الفرنسية، ومحاولة إلصاقها بالمجاهدين لزرع الشكوك وإثارة الغموض وتشويه صورة الثّورة لدى الشّعب!

روى الشّيخ عبد اللّطيف سلطاني، أمين مركز جمعية العلماء، أنّه قبل حادث الاختطاف بخمسة أيام وصلت الشّيخ التّبسي رسالة إنذار إلى مركز الجمعية عن طريق بريد (الجزائر المحطة) جاء فيها: «إلى الشيخ العربي التّبسي، نطلب منك أن تخرج من الجزائر حينا قبل أن يفوت الوقت»[69]! وهذه ربما نصيحة من أحد المطّلعين على المكيدة المدبرة والمشفقين على الشّيخ، عرف تدبير المكيدة فحاول أن ينصحه بهذه الرسالة[70]، كما يمكن أن تكون محاولة أخيرة من المخابرات الاستعمارية لدفع الشّيخ التّبسي إلى مغادرة البلاد لتتفادى تداعيات تصفيته بالطريقة المدبرة. ومهما يكن مصدر هذا الإنذار، فإنّ الشيخ العربي التّبسي اختار البقاء ليقضي الله أمرا كان مفعولا!

ففي ليلة الرّابع أفريل 1957م، اقتحم جنود تلك العصابة السرّية منزل الشّيخ بمدرسة حي بلكور، فانتزعوه من فراشه، وعاملوه بغلظة وفضاضة، وبعثروا كتبه، وداسوا بالأقدام أمامه مصاحف القرآن وكتب التفسير والحديث، ثمّ أخرجوه من منزله وذهبوا به إلى وجهة غير معلومة، حاسر الرّأس، حافي القدمين، في ثياب النّوم، ولم يراعوا فيه مكانته الدّينية العالية، ولا سنّه المتقدمة، ولا حالته الصّحية المتدهورة، واغتالوه في مكان ما، بعد أيام من التعذيب، وأخفوا جثّته، فلم يُعرف له قبر إلى الآن! أما طريقة إعدام الشيخ رحمه الله فقد سجّل المجاهد محمد زروال شهادة أسندها إلى المجاهد "أحمد الزّمولي"، عن أحد الجزائريين كان يعمل في الجيش الفرنسي، قال هذا الأخير: « كنت حاضرا عندما أحضر رجال العدو صهريجا كبيرا وضعوا فيه مادة الزفت، ثم أشعلوا النّار في تلك المادة، ثم تضافرت جهود أربعة من أفراد العدو على الشيخ العربي التبسي فحملوه بين أحضانهم ورموه في ذلك الصهريج، قال الراوي: وقد رأيت كيف تطاير شعر رأس الشيخ من شدة لهب النار وألسنتها المتطايرة في عنان السماء، قبل أن يسقطه أولئك الأربعة في قعر الصهريج..»![71].

**خاتمة**

خلاصة القول أنّ الشّيخ التّبسي كان يؤمن بأنّ التغيير الحقيقي للمجتمع الجزائري إنّما يتم بالتربية والتعليم والتوعية الثقافية، ولكن في ذات الوقت كان يؤمن بأنّ الاستعمار لا يفهم إلاّ لغة السّلاح، لذلك كان وهو يعمل في ميدان الإصلاح، يفكر في الثورة المسلّحة، ويُعدّ الشّعب لها نفسيا وفكريا وروحيا.

ولأنّ الشّيخ كان ثائرا بطبعه، فقد أيّد الثورة منذ بدايتها، بماله وفكره ومساعيه المختلفة، فاضطلع بأدوار سرية عظيمة في خدمة الثورة، كجمع الأموال لها، وربط الاتّصال بين قادتها، وحثّ الناس على الالتحاق بها، كيف لا وهو الذي أفتى بأنّه لا يجوز لأيّ مسلم بدون عذر أن يتخلف عن الجهاد!

وقد استمر الشيخ التبسي على موقفه هذا رغم خطورة الظروف آنذاك، وقد نصحه زملاؤه بمغادرة البلاد، واقترحت عليه قيادة الثورة مرارا أن يلتحق بتونس أو مصر، ويتجنب الأخطار التي تهدّده، لكنّه أبى ذلك، وآثر البقاء إلى جانب الشّعب يحمّسه ويحضّه على الجهاد، وكان يتأسّف لأنّ سِنُّه وصحته لا يسمحان له بحمل السّلاح!

لاحظت السّلطات الاستعمارية مدى النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الشّيخ في أوساط الشّعب، فحاولت التأثير عليه بشتّى الطرق لعزله عن حركة الثورة، ولما فشلت في ذلك لجأت إلى التخلّص منه باختطافه من داره واغتياله وإخفاء جثّه!

ولم يكن الشّيخ العربي التّبسي وحده من لقي هذا المصير من أعضاء جمعية العلماء، فهناك قبله الأستاذ الأديب والصحفي أحمد رضا حوحو، أمين معهد ابن باديس، فقد اعتُقل يوم 30 مارس 1956م للمرة الثانية واغتيل بنواحي قسنطينة ودفن سرا، وبعده الشّيخ محمد العدوي الأستاذ بمعهد ابن باديس والذي لقب بـ"ابن باديس الثّاني"، أُغتيل ودفن سرا في أواخر أوت 1957م، وكذلك الأستاذ أحمد بوشمال السّاعد الأيمن للإمام ابن باديس في حياته، وأمين مال المعهد، اعتُقل خلال الأسبوع الثاني من سبتمبر 1958م للمرة الثانية ولم يظهر له أثر[72]. فهؤلاء جميعا من أسرة معهد ابن باديس،

أخِذوا وعُذّبوا وأُعدموا ولم يُعرف لرفاتهم مكان ولا لوفاتهم زمان محدّد، لا لسبب سوى إدراك الاستعمار لخطورتهم ودورهم في الثورة!

رحم الله الشّيخ العربي التّبسي وجميع شهداء الجزائر الذين ماتوا ليحيا الوطن، وتحمّلوا ما تحملوا من الأذى لنحيا أحرارا في هذا الوطن. وإذا كنا اليوم لا نعرف قبور هؤلاء وغيرهم من شهداء ثورتنا المجيدة، فإنّنا نعرف جيّدا المبادئ التي ضحوا في سبيلها بحياتهم، وما يهم اليوم ليس أن نبحث عن رفاتهم، وهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، فما يهم أكثر هو أن نعمل بمبادئهم، ونبني الوطن الذي استرخصوا في سبيله أنفسهم، حتى نكون خير خلف لخير سلف.

## المصادر والمراجع

**أولا- الكتب:**


- أبو القاسم سعد الله، حديث صريح مع الأستاذ أبوالقاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللّغة والتاريخ، (أجراه الصحفي مراد وزناجي)، منشورات الحبر، الجزائر، 2008.
- أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتحرير، 1830- 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2007.
- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- أحمد حماني، حياته وآثاره، شهادات ومواقف، دار الأمة، الجزائر، (د.ت).
- أحمد حماني، شهداء علماء معهد ابن باديس، قصر الكتاب، البليدة (الجزائر)، 2004.
- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج2، دار البعث، قسنطينة (الجزائر)، ط1، 1984.
- أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، ج1، 1932- 1965، دار القصبة، الجزائر، 2006.
- الطاهر آيت حمو، رجال صنعوا التاريخ، لقاء مع الرئيس بن يوسف بن خدة، دار الخلدونية، الجزائر، 2011.
- العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق د. شرفي أحمد الرّفاعي، القسم الأوّل، دار البعث، قسنطينة.
- الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، 1992.
- عبد الرحمن شيبان، في موكب الثورة، دار الخلدونية، الجزائر، 2011.
- عبد الرحمن فارس، الحقيقة المرّة، مذكرات سياسية 1945- 1965، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار القصبة، الجزائر، 2007.
- عبد السّلام بوشارب، تبسة، معالم ومآثر، المتحف الوطني للمجاهد، 1996.

- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج 4، 5، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
- محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي بالجزائر، القطاع الجزائري، دار الأمة، ط1، 1999.
- محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2000.
- محمد الصّالح بن عتيق، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية الجزائرية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 1990.
- محمد العربي الزبيري، الثورة في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 187.
- محمد الميلي، ذكرياتي من زمن البراءة، دار القصبة، الجزائر، 2011.
- محمد زروال، اللّمامشة في الثورة، دار هومة، الجزائر، 2003.
- محمد عباس، دوغول.. والجزائر، أحداث وقضايا، شهادات، دار هومة، 2007.
- محمد عباس، رواد الوطنية، شهادات 28 شخصية وطنية، دار هومة، الجزائر، 2009.
- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1976.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الأوّلية على غرّة نوفمبر، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1984.
- نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990.
- Ferhat Abbas, l'indépendance confisquée 1962-1978, Alger, livres éditions, 2011.
- Jacques Carret , l'Association des oulama d'Algerie, Alger, 1959 .

**ثانيا- الصحف والمجلات:**

- البصائر، العدد 90، 5 سبتمبر 1949.
- البصائر: العدد 204، 20 أكتوبر 1952.
- البصائر: العدد 330، 26 أوت 1955.
- البصائر: العدد 349، 13 جانفي 1956.
- المنار، العدد 17، 6 فيفري 1953م.

**ثالثا- الشّهادات الشّفوية:**

- نوّار جدواني، من تلاميذ الشيخ التبسي.
- محمد الطيّب سي بشير، وهو من تلاميذ الشيخ التبسي في فرع معهد ابن باديس (بلكور).
- الشييخ الحسين بن الميلي، مناضل في حزب الشعب وحركة الانتصار، ومعلم بمدرسة جمعية العلماء (شهادة ضمن كتاب العربي الزبيري، الثورة في عامها الأوّل).

**رابعا- الأنترنيت:**

- Ali Boutekadjirt , La vie de cheikh Saïd El-Bibani , (site Internet: https://binbadis.net/), en ligne le 25-10-2012, consulté le 08/11/2019.

## الهوامش:

[1]- نُشر المقال في مجلة (إفريقيا وآسيا) (L'Afrique et L'Asie) في سنة 1958م، ثم طُبع كبحث مستقل في سنة 1959م، وكانت الثّورة الجزائرية على أشدّها.

[2]- Jacques Carret, Le réforme en Islam, L'Association des oulama d'Algerie, Alger, 1959, p 22.

[3]- من الذين ترجموا لحياة الشّيخ التبسي بتوسع محمد علي دبوز في الجزء الثاني من كتابه "أعلام الإصلاح في الجزائر".

[4]- إضافة إلى البعثات العلمية التي كانت ترسلها جمعية العلماء إلى البلدان العربية، دعا الشيخ العربي التّبسي إلى ضرورة إرسال بعثات مماثلة إلى أوربا، وفي ذلك كتب يقول: «فالواجب يقضي بأن نعمل على إرسال "بعثات علمية" إلى أوربا للتزوّد من العلوم التي تقوم عليها حياة الأمم اليوم. فإنّنا متى اعددنا شبابا مسلّحا بالسّلاحين: الروحي المستمد من ديننا وتاريخنا، والسّلاح المادي الموجود عند أوربا الآلية الصّناعية، نكون عندئذٍ قد أسّسنا للشّعب دعائم العزّة وأركان السّيادة والسّعادة. لكن هذا يتطلب من الأمة نضالا، وهل يستحق الحياة إلاّ المناضلون! ». (البصائر، العدد 90، 1949/09/05م).

[5]- نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب، 1990، ص 158.

[6]- العبارة للشيخ العربي التّبسي، البصائر، العدد 90، 5 سبتمبر 1949.

[7]- العبارة للشيخ الإبراهيمي، أنظر آثاره، ج 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ص343- 344.

[8]- محمد الميلي، ذكريات من زمن البراءة، دار القصبة، الجزائر، 2011، ص 268- 269.

[9]- من طلبة معهد ابن باديس بين 1947- 1949م، ثم أحد معلمي مدارس جمعية العلماء.

[10]- العقيدة، (جريدة أسبوعية جزائرية)، العدد 145، 9 جوان 1993.

[11]- عبد السّلام بوشارب، تبسة، معالم ومآثر، المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ص 30.

[12]- محمد الميلي، ذكريات، مرجع سابق، ص 271.

[13]- المنار، العدد 17، 6 فيفري 1953م.

[14]- أنظر: الشيخ الإبراهيمي، الجزء الخامس من آثاره، أيضا: الشيخ الفضيل الورتلاني، الجزائر الثّائرة.

[15]- آثار الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، جـ 5، من مقدمة نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، ص 21.

[16]- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، جـ 2، دار البعث، قسنطينة - الجزائر، ط1، 1984، ص 269.

[17]- للمزيد في الموضوع أنظر: عبد الله مقلاتي، إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2014، ص 51 وما بعدها.

[18]- أحمد حماني، صراع، جـ 2، مرجع سابق، ص 300.

[19]- عبد الله مقلاتي، مرجع سابق، ص 55- 56.

[20]- أحمد حماني؟، صراع، جـ 2، مرجع سابق، ص 300.

[21]- حديث صريح مع الأستاذ أبوالقاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللّغة والتاريخ، (أجراه الصحفي مراد وزناجي)، منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص 99.

[22]- سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتّحرير، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، ص 170.

[23]- محمد الميلي، ذكريات، مرجع سابق، ص 270. (ذكر المؤلف أنّه سمع هذه الرواية من الشّخص نفسه الذي تسلّم المبلغ من الشيخ التبسي، وقال أنّه ما يزال على قيد الحياة ورمز لاسمه بـ: ح.م.ط.ع.س).

[24]- الإمام الشيخ العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق د. شرفي أحمد الرّفاعي، القسم الأوّل، دار البعث، قسنطينة، ط1، ص 29.

[25]- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1976، ص68.

[26]- محمد عباس، رواد الوطنية، شهادات 28 شخصية وطنية، دار هومة، الجزائر، 2009، 396- 397.

[27]- العقيدة، جريدة أسبوعية جزائرية، العدد 145، 9 جوان 1993.

[28]- الشيخ الحسين بن الميلي: مناضل في حزب الشعب وحركة الانتصار، تعرّف عليه عبان في 1947م حين كان موظفا ببلدية شلغوم العيد، بينما كان الشيخ الحسين معلما بمدرسة جمعية العلماء بها.

[29]- ضلّ الأستاذ إبراهيم مزهودي يؤدي هذه المهمة الحيوية أكثر من سنة، إلى أن اكتُشف أمره في مارس 1956م، وبعد دراسة الموضوع مع الشيخ التّبسي وعبان استقر الرأي على أن يلتحق مزهودي بالمنطقة الثانية وينضم إلى قيادتها، وقد حضر مؤتمر الصومام برتبة رائد وكأحد مساعدي زيغود يوسف. رواد الوطنية، مرجع سابق، ص397.

[30]- محمد العربي الزبيري، الثورة في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 187- 188.

[31]- سوستيل: باحث انتروبولوجي، ورجل مخابرات سابق، عُيّن واليا عاما على الجزائر في فبراير 1955م، حاول إيجاد "قوة ثالثة" يمكن أن تبحث معه إدخال بعض الإصلاحات في إطار تطبيق قانون 1947م الخاص بالجزائر بهدف عزل جبهة التّحرير الوطني، فأجرت مصالحه سلسلة من اللّقاءات السرّية مع بعض قادة القوى السياسية الجزائرية، لكن هذه المحادثات انتهت دون الوصول إلى أية نتيجة.

[32]- محمد العربي الزبيري، الثورة في عامها الأول، مرجع سابق، ص 187.

[33]- جاء في افتتاحية البصائر (العدد 330، الصادر بتاريخ: 1955/08/26م): « القضية أيّها السّادة قضية انقلاب كامل، لا قضية إصلاحات جزئية، قضية شعب يريد الوصول إلى الحياة الشّريفة الحرّة، قضية أمة تريد أن تصل إلى الحكم الذاتي ضمن نظام ديمقراطي صادق لا محاباة فيه ولا إجحاف، قضية عشرة ملايين من البشر، أنفوا حياة العار وعزموا على تمزيق أغلال الاستعمار، وتبوئ مقاعد الأحرار. نريد دولة وحكومة، وديمقراطية صحيحة، ودستورا شعبيا يحقق سيادة الأمة، كل الأمة، لا نريد لقمة خبز تلقى لإسكات الجياع، ولا حفنة من الرماد تذر في عيون الناظرين، نريد نظاما كاملا لا إصلاحات منقوصة، نريد حقا ولا نقبل صدقة.. ».

[34]- محمد عباس، دوغول.. والجزائر، أحداث وقضايا، شهادات، دار هومة، 2007، ص 317.

[35]- ذكر هذا الأستاذ أحمد طالب الإبراهيمي في مذكراته وقال أنّ اجتماعا قد عقد في غضون سنة 1955م بمنزله العائلي في القبة، جمع الشيخين العربي التبسي ومحمد خير الدين بعبان رمضان. أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، جـ 1، 1932- 1965، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 94.

[36]- الطاهر آيت حمو، رجال صنعوا التاريخ، لقاء مع الرئيس بن يوسف بن خدة، دار الخلدونية، الجزائر، 2011، ص 75.

[37]- كان الوسيط في علاقتهما الشيخ الربيع بوشامة الذي توطّدت علاقته مع عميروش حين كانا يعملان معا في بداية الخمسينات في الشعبة المركزية لجمعية العلماء بباريس، بوشامة رئيسا للشعبة المركزية، وعميروش عضوا فيها، ورئيسا لشعبتها في القسم الخامس عشر من باريس.

[38]- أحمد حماني، صراع، جـ 2، مرجع سابق، ص 299.

[39]- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، جـ 2، مرجع سابق، ص 68.

[40]- وهو شقيق الشّيخ سعيد البيباني، كان يقيم بباريس من أجل الدراسة.

[41]- Ali Boutekadjirt, La vie de cheikh Saïd El-Bibani, (site Internet: https://binbadis.net/), en ligne le 25-10-2012, consulté le 08/11/2019.

[42]- أحمد حماني، صراع، جـ 2، مرجع سابق، ص 299.

[43]- Jacques Carret , Opcit , p.23.

[44]- مما جاء فيه: «.. يجب الدخول في مفاوضات قبل فوات الأوان.. إنّ المفاوض الوحيد في الوقت الراهن هو جبهة التحرير الوطني »! أنظر: عبد الرحمن فارس، الحقيقة المرّة، مذكرات سياسية 1945- 1965، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص 225.

[45]- يقول فارس: «.. طلب مني الشيخ العربي التّبسي مقابلته على وجه السّرعة، استقبلني في مكتبه الملحق بالمسجد في حيّ بلكور. عندما رآني عانقني وهو يقول لي: بارك الله فيك، لقد عرّيتَ الوضعية الحقيقية للبلاد بشكل رائع، استمر في مهمتك النبيلة، فالله والعلماء معك » أنظر: عبد الرحمن فارس، المرجع نفسه، ص 89.

[46]- Ferhat Abbas, l'indépendance confisquée 1962- 1978, livres éditions, Alger, 2011, p.135- 136.

[47]- ذكر الشّيخ عبد الرحمن شيبان أنّ هذا الاجتماع انعقد باتفاق مع قيادة الثورة. أنظر كتابه: في موكب الثورة، دار الخلدونية، الجزائر، 2011، ص 88.

[48]- البصائر، العدد 349، 13 جانفي 1956.

[49]- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 34.

[50]- يُذكر أنّه حين أصدر معلمو المدارس الحرّة نداءيهم المنشورين في جريدة البصائر (إلى الضمير الفرنسي) في 12 فيفري 1955م، (إلى الشّعب الجزائري) في 11 مارس 1955م، وفيهما اعتراف بالثورة التحريرية وشرعيتها، نصح الشيخ التبسي هؤلاء المعلمين بقوله: « إذا أردتم الإبقاء على أنفسكم لفائدة الثورة التي تحتاج منكم المناصرة والمساهمة وتقوية الصّف، فاحفظوا قليلا من حدّتكم هذه وصراحتكم! ». أنظر: محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2000، ص 84.

[51]- قال بهذا على الأقل: أحمد حماني في كتاب: الشيخ أحمد حماني، حياته وآثاره، شهادات ومواقف، دار الأمة، الجزائر، (د.ت)، ص 102، وسعد الله في كتابه: سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 170، ومولود قاسم نايت بلقاسم في كتابه: ردود الفعل الأوّلية على غرّة نوفمبر، دار البعث، قسنطينة- الجزائر، ط1، 1984، ص 76.

[52]- أحمد حماني، حياة وآثار، شهادات ومواقف، دار الأمة، الجزائر، ص 102.

[53]- أحمد حماني، شهداء علماء معهد ابن باديس، قصر الكتاب، البليدة - الجزائر، 2004، ص 71.

[54]- أحمد حماني، صراع، ج 2، مرجع سابق، ص 302.

[55]- محمد الصّالح بن عتيق، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية الجزائرية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 1990، ص 122- 123.

[56]- يذكر الشيخ أحمد حماني أنّه حين كان بسجن الكدية بقسنطينة وردت عليهم من جبهة وجيش التحرير أوامر صريحة بوجوب مواصلة التّعليم والتّعلّم، وعلى كل مناضل مثقف داخل السجن أن يُعلّم إخوانه، فإن لم يكن مثقفا فعليه أن يتعلم. (أنظر كتابه صراع، ج 2، ص 302).

[57]- يذكرني هذا بموقف الزعيم الانجليزي "ونستن تشرشل"، حين اشتكى له بعض وزرائه خطورة القصف الجوي الألماني على الجزر البريطانية، وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية، حوالي عام 1942م، فكانت إجابته: كم من مدرسة هُدّمت؟ قيل له: ولا مدرسة، قال: إذن بريطانيا بخير!

[58]- أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات، ج 1، مرجع سابق، ص 93- 94.

[59]- البصائر، العدد 204، 20 أكتوبر 1952.

[60]- محمد حسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي بالجزائر، القطاع الجزائري، دار الأمة، ط1، 1999، ص 99- 100. كان الشّيخ التّبسي يدير المعهد ويقدم فيه بعض الدروس في الفقه لطلبته، وكان يدرّس معه كذلك الشيخ حمزة بوكوشة والشيخ الربيع ميمون (أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر حاليا)، وكان من تلاميذهم: محمد الطيّب سي بشير، محمد كتفي، أحمد كاتي، بوزيد حنفي، حسن تيشرافي، بوناب زياد، شريفي بوعلام وآخرون. وبعد اختطاف الشّيخ التّبسي وإلقاء القبض على الشيخ الربيع ميمون والشيخ حمزة اتّصل بهم الشيخ أحمد حماني من قسنطينة والشيخ بوشمال مدير المعهد وطلبوا منهم الالتحاق بالمعهد الأم بقسنطينة، الذي أُغلق هو الآخر في أوت من سنة 1957م. (معلومات أفادني بها الأستاذ محمد الطيّب سي بشير، وهو من طلبة فرع المعهد).

[61]- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج 2، مرجع سابق، ص 67.

[62]- نبيل أحمد بلاسي، مرجع سابق، ص 158.

[63]- نفسه، ص 158.

[64]- محمد علي دبوز، ج 2، مرجع سابق، ص 70- 71.

[65]- محمد زروال، اللّمامشة في الثورة، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 199.

[66]- رواية شفوية أفادني بها السيّد نوّار جدواني، وهو من تلاميذ الشيخ التبسي، وقال أنّه سمع ذلك عن حمادي الهاشمي نفسه وهو ضابط لا يزال حيا.

[67]- محمد الصّالح بن عتيق، مرجع سابق، ص 203 – 204.

[68]- محمد علي دبوز، ج 2، مرجع سابق، ص 69.

[69]- محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 1، دار هومة، الجزائر، 2000، ص 22.
[70]- نفسه، ص 23.
[71]- محمد زروال، مرجع سابق، ص 199.
[72]- عن دور هؤلاء في الثورة، وظروف استشهادهم أنظر: أحمد حماني: شهداء علماء معهد ابن باديس، مرجع سابق.